أسباب تأخر النصر الظاهر:

النفس مجبولة على حبّ العاجل، وتحقق النصر الظاهر لدين الله أمر محبّب إلى النفس كيف لا، وهو ظهور دين الله وقمع الباطل وأهله، ولذلك قال ـ سبحانه ـ: ﴿**وأخرى تُحبّونها نصر من الله وفتحٌ قريب وبشّر المؤمنين**﴾. [سورة الصافات، الآية: ١٣]

ونحن مأمورون بالسعي لإقامة دين الله ﴿**وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله**﴾. [سورة البقرة، الآية: ١٩٣]

وكثير من الناس، وأخصّ الدعاة منهم يستبطئون تحقق النصر، وقد يسبب لهم هذا الأمر شيئًا من اليأس أو الانحراف عن المنهج، ويغفلون عن الأسباب التي تؤخر النصر الظاهر، مع أن معرفة هذه الأسباب أمر مهم، وله آثاره الإيجابية على حياة الدعاة والمدعوّين والأتباع، وذلك أن هذه الأسباب على نوعين:

١ ـ **أسباب سلبية**، والمعرفة بها سبيل إلى تلافيها وإزالتها.

٢ ـ **أسباب إيجابية**، وفقهها وإدراكها عامل مؤثر في ثبات الداعية على المنهج الرباني، سواء تحقق النصر عاجلاً أو آجلاً.

وسأقف مع أبرز الأسباب التي تكون عاملاً مؤثرًا في تأخير النصر أو عدم وقوعه في حياة الداعية أو على يديه، وسأختصر فيها حسب مقتضى المقام:

١ ـ تخلف بعض أسباب النصر المشروعة:

وذلك أن للنصر أسبابًا، فإذا تخلّفتْ هذه الأسباب أو بعضها تخلف النصر، لأن السبب عند الأصوليين، هو ما يلزم من وجوده الوجود، ومن عدمه العدم لذاته، وإن كان لا يلزم من وجود السبب هنا وجود النصر لمانع آخر، ولكن يلزم من عدمه العدم.

فمثلاً: نجد من أسباب النّصر المشروعة الإعداد للمعركة، لأن الله ـ تعالى ـ يقول:

﴿وأعدّوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل تُرهبون به عدوَّ الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم﴾ [سورة الأنفال، الآية: ٦٠]، فعدم الأخذ بالأسباب سبب من أسباب الهزيمة أو تأخر النصر.

٢ ـ قد يكون سبب تأخر النصر حدوث مانع من الموانع، والمانع هو: ما يلزم من وجوده العدم، ولا يلزم من عدمه وجود ولا عدم لذاته.

والموانع كثيرة جدًا، كالظلم والركون للكفار والمعاصي وغيرها.

وموانع النصر هي أسباب الهزيمة، ولذلك نجد في غزوة أحد لما بدت علامات النصر ثم وقعت المخالفة من الرماة لأمر الرسول، ﷺ، حلّت الهزيمة، كما قال ـ تعالى ـ: **﴿أولمّا أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنّى هذا قل هو من عند أنفسكم﴾**. [سورة آل عمران، الآية: ١٦٥]. قال محمد بن إسحاق وابن جرير والربيع بن

أنس والسدي. ﴿قل هو من عند أنفسكم﴾، أي بسبب عصيانكم لرسول الله، ﷺ، حين أمركم إلاّ تبرحوا مكانكم فعصيتم، يعني بذلك الرماة.(٣٣).

وفي حنين لماذا تأخر النصر، يقول ـ سبحانه ـ: ﴿لقد نصركم الله في مواطن كثيرة ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتُكم فلم تُغنِ عنكم شيئًا وضاقت عليكم الأرض بما رَحُبَتْ ثم ولّيتم مُدْبِرين﴾.

حيث ذكر الله ـ سبحانه ـ أن قول أحد المسلمين لن نُغلب اليوم من قلة، وكان عددهم (١٢) ألفًا(٣٤) مانعًا من موانع النصر، لأن الله ـ سبحانه ـ وكلهم إلى كثرتهم فلم تنفعهم شيئًا، ثم تحقق النصر بعد ذلك عندما زال هذا المانع حيث ثبت أن الكثرة وحدها لا تجلب النصر، وإنما الاعتماد على الله ـ سبحانه ـ بعد الأخذ بالأسباب.

ومن خلال ما سبق يتضح أهمية مراعاة الأسباب، والحرص على تحصيلها، مع تلافي الموانع واجتنابها.

٣ ـ الانحراف عن المنهج:

الانحراف عن المنهج مانع من الموانع، ولكن أفردته لأهمية

---

(٣٣) انظر تفسير بن كثير ١/٤٢٥.

(٣٤) انظر تفسير الطبري ١٠/١٠٠ وتفسير ابن كثير ٢/٣٤٣.

التنبيه عليه، فقد تتبعتُ بالاستقراء واقع كثير من الجماعات الإسلامية والحركات الجهادية المعاصرة، وبحثت عن سرّ عدم انتصارها وتحقق ما تعلنه من أهداف خيّرة نبيلة، حيث إن تلك الجماعات تسعى لنصرة دين الله، وتحكيم شرعه، فوجدت إن من **أبرز الأسباب** ـ حسب ما ظهر لي ـ انحرافها عن المنهج الصحيح ـ منهج أهل السّنة والجماعة ـ في ثوابتها أو وسائلها.

- **وقد يكون الانحراف يسيراً** ـ في نظر البعض ـ ولكنه خطير جدًا ومؤثر في تحقيق النصر.
- **فمن ذلك التساهل في قضية العقيدة** وعدم اعتبارها من الأولويات التي تتميز بها تلك الجماعة.
- **وكذلك تمييع مفهوم الولاء والبراء**، والركون إلى الظالمين ومداهنتهم.
- **ومن ذلك تأصيل الحزبية**، مما يؤدي إلى تفريق كلمة المسلمين، وتنافر القلوب. وكذلك اعتبار أن الغاية تبرر الوسيلة، وهلمّ جرًّا.
- **إن تحرير الأصول والثوابت**، وتنقيتها مما قد يشوبها، أمر جوهري وأساس في سلامة منهج الدعوة وصدق التوجه.
- **وكذلك عرض كل وسيلة من الوسائل على القواعد والأصول الشرعية**، حماية لها من الانحراف تحت ضغط الواقع وحجّية المصلحة المتوهمة.

٤ ـ **عدم نضوج الأمة**، وضعف استعدادها: إن دين الله عظيم، ويحتاج إلى أمة قد تربّت على هذا الدين زمنًا حتى تتمكن من حمله وتبليغه للناس.

• **أمة قد اجتازت المشقة والعقبات قبل أن تحصل على النصر**، بل من أجل الحصول عليه.

• **ثم إن قيام هذا الدين يحتاج إلى طاقات ضخمة**، كثيرة العدد، متعددة المواهب والتخصصات، وهذا الأمر يحتاج إلى زمن ليس باليسير، فإعداد الرجال وتربيتهم من أشق المهمات وأصعبها.

• **ولذلك نجد أن رسول الله**، ﷺ، بقي ثلاثة عشر عامًا يربّى الرجال واحدًا واحدًا، ويهيّء الأمة جماعة جماعة، استعدادًا لحمل الرسالة والذود عنها.

• **فقوم في دار الأرقم**، وآخرون يهاجرون إلى الحبشة، ومرة يحصر الجمع في شعب أبي طالب، ثم تأتي الهجرة إلى المدينة.

• **كل هذا وغيره هيأ هذه الأمة لحمل الرسالة** حتى كمل الدين وفتح الله على المسلمين فتحًا عظيمًا.

• **ومما سبق يتضح أن هذا الأمر** يحتاج إلى زمن لتمامه، واكتمال بنائه، وهو سبب من أسباب تأخر النصر وظهور دين الله مهيمنًا على البشر.

٥ ـ عدم إدراك قيمة النصر:

إن مجيء النصر سريعًا دون كبير مشقة ولا عناء، يجعل الأمة المنتصرة لا تعرف قيمة هذا الانتصار، ومن ثم لا تبذل من الجهود للمحافظة عليه ما يستحقه وما يحتاج إليه.

وسأضرب مثلين يوضحان هذه الحقيقة:

(ا) **الرجل الذي عاش في الفقر** ثم جدّ واجتهد في تحصيل المال حتى أصبح غنيًا، نجد أنه يحافظ على هذا المال محافظة عجيبة، ويبذل كل الوسائل الممكنة للذود عنه وحمايته.

وذلك لأنه ذاق طعم الفقر ومذلته، ثم إنّه تعب في جمع هذا المال وتنميته، فليس من السهولة أن يفرّط فيه، ويكره أن يعود للفقر بعد أن أخرجه الله منه، كما يكره أن يعود للكفر بعد إذ أنقذه الله منه.

- **أمّا أولاده وورثته**، فتجد أن الكثير منهم لا يولي هذا المال ما يستحقه من عناية واهتمام، بل قد يعبث فيه حتى يصبح فقيرًا.
- **وذلك أنّه لم يعرف قيمة هذا المال**، ولم يتعب في جمعه وكسبه، ولم يذق طعم الفقر كما ذاقه مورّثه.

(ب) قيام الدول وسقوطها:

مما يُلحظ بالاستقراء والتتبع أن الدول تكون إبّان قيامها قوية مهابة، وتجد أن الأمراء والخلفاء يبذلون جهودًا مضاعفة للمحافظة

على الدولة، وتلافي جميع أسباب ضعفها.

ثم تأتي أجيال لم تساهم في قيام الدولة، وورثت الملك كما يرث الوارث المال، وهنا ينشغلون عن الدولة بمكاسبها، ويغفلون عن تبعاتها، وتبدأ الدولة في الضعف والتفكك حتى قد يؤوّل الأمر إلى سقوطها.

● **ولذا فإنّ مجيء النصر دون تعب** أو عناء قد يكون سببًا في عدم استمراره، وصعوبة المحافظة عليه، ومن هنا فقد تقتضي حكمة الله أن يتأخر النصر حتى يستوي الأمر ويوجد الرجال الذين يعرفون قيمة النصر، والثمن الذي يستحقه.

٦ ـ **قد يكون في علم الله** ـ جلّ وعلا ـ أن هؤلاء لو انتصروا لن يقوموا بتكاليف الانتصار،(٣٥) من إقامة حكم الله في الأرض، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة.

وذلك أن الانتصار ليس مرادًا لذاته، وإنما لما يتحقق منه، وهو إخماد الفتنة، وأن يكون الدين كله لله.

وهذا مما يفهم من قوله ـ تعالى ـ: ﴿**ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز* الذين إن مكّناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهَوْا عن المنكر ولله عاقبة الأمور**﴾. [سورة الحج، الآية: ٤٠، ٤١]

---

(٣٥) هذا السبب يختلف عن الذي قبله فتأمل.

وقد لا نعلم نحن سبب ذلك ولكن الله يعلمه.

وذلك أن هناك فئة من الناس تثبت في حالة الشدة والعناء، وتصمد في حالة المواجهة والبلاء.

ولكنها تضعف وتتقهقر في حالة النعم والرخاء والأمن.

وقوم هذه حالهم لا يستحقون النصر، والله أعلم بما كان، وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف يكون.

٧ ـ من أسباب تأخر النصر أن الباطل الذي يحاربه الدعاة لم ينكشف زيفه للناس تمامًا، فقد يجد له أنصارًا من المخدوعين فيه، ممن هم ليسوا على هذا الباطل، ولا يقرونه لو اكتشفوا حقيقته.

ومن أبرز الأمثلة على ذلك قصة المنافقين، فكثير من الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ لم يكونوا يعرفون عددًا من أقطاب النفاق، بل إنهم يحسنون الظن بهم، ولذلك وجدنا من يدافع عنهم، حتى إن بعض كبار الصحابة من الأنصار كانوا يدافعون عن عبدالله ابن أُبيّ، لعدم معرفتهم بما كان عليه من الباطل وبخاصة في أول العهد المدني.

ولما جاء زيد بن أرقم وأخبر عن مقولة عبدالله بن أُبي بن سلول في غزوة بني المصطلق، قال عمر بن الخطاب لرسول الله، ﷺ، مُرْ عبّاد بن بشر فليقتله، فقال رسول الله، ﷺ، «**فكيف يا عمر إذا تحدث الناس أن محمدًا يقتل أصحابه؟ لا!! ولكن أذّن بالرحيل**».

إذن المنافقون في نظر كثير من الناس أصحاب لرسول الله، ﷺ، لأن حقيقتهم لم تنكشف للناس، وحقيقتهم، ﴿هم العدو فاحذرهم قاتَلَهم الله أنّى يؤفكون﴾ [سورة المنافقون، الآية: ٤].

ولذلك قال رسول الله، ﷺ، لعمر في نهاية المطاف لَمّا تكشفت حقيقة هؤلاء عند كثير من المسلمين: «كيف ترى يا عمر؟ أما والله لو قتلته يوم قلت لي: اقتله، لأرعدت له آنف لو أمرتها اليوم تقتله لقتلته».

قال عمر: قد والله علمت لأمر رسول الله، ﷺ، أعظم بركة من أمري.

فهذا الحديث يصور معنى هذا السبب الذي ذكرته أدقّ تصوير وبيان.

والدخول في معركة مع قوم لم تنكشف حقيقة أمرهم تمامًا، له آثاره السلبية على الأمة المسلمة، إذ أن بعض المسلمين سيقف في صف أولئك، كما وقف بعض الصحابة مع المنافقين.

كما في الحديث الذي رواه البخاري ومسلم عن عائشة في قصة الإفك وجاء فيه:

فقام رسول الله، ﷺ، من يومه فاستعذر من عبدالله بن أُبي بن سلول، قالت: فقال رسول الله، ﷺ، وهو على المنبر: يا معشر المسلمين من يعذرني من رجل قد بلغني أذاه في أهلي، فوالله ما

علمت على أهلي إلاّ خيراً، ولقد ذكروا رجلاً ما علمت عليه إلاّ خيراً، وما كان يدخل على أهلي إلاّ معي، فقام سعد بن معاذ الأنصاري ـ رضي الله عنه ـ فقال: أنا أعذرك منه يا رسول الله، إن كان من الأوس ضربنا عنقه، وإن كان من إخواننا من الخزرج أمرتنا ففعلنا بأمرك، قالت: فقام سعد بن عبادة ـ وهو سيد الخزرج ـ وكان رجلاً صالحًا، ولكن احتملته الحمية، فقال لسعد بن معاذ: كذبت لعمر الله، لا تقتله ولا تقدر على قتله، ولو كان من رهطك، ما أحببت أن يقتل، فقام أسيد بن حضير ـ وهو ابن عم سعد بن معاذ ـ فقال لسعد بن عباده: كذبت لعمر الله لنقتلنه، فإنك منافق تجادل عن المنافقين.

فثار الحيان، الأوس والخزرج حتى همّوا أن يقتتلوا ورسول الله، ﷺ، على المنبر، فلم يزل رسول الله، ﷺ، يخفّضهم حتى سكتوا، وسكت رسول الله، ﷺ، . . . » الحديث(٣٦).

وقد لا يقف بعض المسلمين مع هؤلاء، ولكن سيكون وقوفهم مع الدعاة ضعيفًا ومترددًا، لأنهم لم يتيقنوا أن هؤلاء على الباطل، مما يؤثر على المعركة التي يخوضها المسلمون ضد أعدائهم، وقد يؤدي إلى فرقة المسلمين وتأخر النصر.

٨ ـ **ومن أسباب تأخر النصر**، أن البيئة المحَارَبَة قد تكون غير صالحة

(٣٦) اخرجه البخاري (٤١٤١) ومسلم (٢٧٧٠).

بعدُ لاستقبال الحق والخير والعدل، مما يقتضي أمورًا تهيّئها لذلك قبل الدخول معها في معركة، ومن ذلك بذل جميع الوسائل الشرعية لبيان أنّ هؤلاء القوم ـ المحَارَبين ـ على الباطل، ومحاولة إقناعهم ودعوتهم وبيان حقيقة الإسلام، وفساد ما هم عليه من باطل.

فإن هذا الأمر إن لم يكن سببًا في هدايتهم قبل المعركة فإنه وسيلة لمعرفة الحق، ومن ثم القبول به بعد المعركة، ولذا فإن الدعوة إلى الإسلام تسبق الدخول في المعركة.

٩ ـ **ومن أسباب عدم الاستجابة** لدين الله[٣٧]، أن عوامل النصر قد تتوافر بالنسبة للداعية، لكن هناك موانع تتعلق بالمدعوّين ـ كالأمر السابق ـ **ومن ذلك عدم تقدير الله هداية هؤلاء القوم**، حيث كتب عليهم الضلالة، قال ـ سبحانه ـ: ﴿**أفلم ييأس الذين آمنوا أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعًا**﴾ [سورة الرعد، الآية: ٣١]. وقال: ﴿**فمنهم من هدى الله ومنهم من حقّت عليه الضلالة**﴾. [سورة النحل، الآية: ٣٠٦]. وقال ـ جلّ وعلا ـ: ﴿**أولئك الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم**﴾ [سورة المائدة، الآية: ٤١]. إلى غير ذلك من الآيات.[٣٨]

---

(٣٧) واستجابة الناس انتصار لدين الله، حتى لو لم يكن هناك معركة وقتال «إذا جاء نصر الله والفتح».

(٣٨) وانظر تفسير الطبري ٣٠/ ٣٣١ تفسير سورة الكافرون لتجد كلاما جيداً.

١٠ ـ **قد يكون انتصار الداعية** بعد وفاته أعظم من انتصاره في حياته، لأن المراد هو انتصار المنهج، أمّا الأشخاص فإن الله قد تكفل بإثابتهم وإكرامهم، جزاء دعوتهم وصدقهم، ولذلك جاءت الآيات تبيّن هذا الأمر:

﴿ولا تحسبنّ الذين قُتلوا في سبيل الله أمواتًا بل إحياء عند ربهم يرزقون﴾. [سورة آل عمران، الآية: ١٦٩]. **﴿قال ياليت قومي يعلمون بما غفر لي ربي وجعلني من المكرمين﴾**. [سورة يس، الآية: ٢٦، ٢٧]

﴿ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون﴾ [سورة النحل، الآية: ٣٢]. **﴿إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألّا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون* نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم ولكم فيها ما تدّعون﴾**. [سورة فصلت، الآية: ٣٠، ٣١]. إلى غير ذلك من الآيات.

وكم من داعية لم ينتصر الدين في حياته، ولكنه انتصر أعظم الانتصار بعد مماته، فهذا عبدالله الغلام، وسبق بيان قصته، وكذلك شيخ الإسلام ابن تيمية مات في سجنه، ولكن منهجه انتصر انتصارًا باهرًا بعد عدة قرون من وفاته.

وسيد قطب سُجن ثم قتل، ولكن مؤلفاته انتشرت أكبر الانتشار بعد قتله!!.. وهكذا.

١١ ـ أن تأخر النصر فيه ابتلاء وتمحيص للدعاة، وفيه من العبر والدروس ما يفيد اللاحقون منه فوائد جمّة. قال ـ تعالى ـ:

﴿أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولمّا يأتكم مَثَلُ الذين خلَوْا من قبلكم مسَّتهم البأساءُ والضراءُ وزُلزلوا حتّى يقولَ الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله إلا إن نصر الله قريب﴾ [سورة البقرة، الآية: ٢١٤]. وقال: ﴿آلـم أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون* ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين﴾. [سورة العنكبوت، الآية ١ ـ ٣]. والآيات كثيرة معلومة.

وبعد:

فهذه أبرز أسباب تأخر النصر الظاهر حسب ما تبيّن لي، وقد تتكشف لنا أسباب تأخر النصر، وقد لا تتكشف.

والذي يجب أن نعتقده أنّ علينا فعل الأسباب الشرعية، سعيًا لنصرة دين الله، أما تحقق النصر فليس لنا بل هو لله ﴿وما النصر إلاّ من عند الله﴾[سورة الروم، الآية: ٤٧].

والنصر لن يتحقق إلاّ إذا حان موعده في علم الله لا في تقديرنا القاصر.

ولن يتحقق النصر إلا بعد الإيمان الجازم بوعد الله، ﴿وكان حقًّا علينا نصرُ المؤمنين﴾[سورة الروم، الآية: ٤٧].

أما من عند شك وريبة فلا يستحق النصر(٣٩).

(٣٩) انظر في ظلال القرآن تفسير سورة الحج ٤/٢٤٢٧ ففيه كلام قيِّم حول بعض ماذكر.